الجمهوريّة الإسلاميّة ابتكار الإمام العظيم

كان للإمام (رضوان الله عليه) ابتكارات كثيرة، لكن أهمّ ابتكار له هو «الجمهوريّة الإسلاميّة». كان هذا ابتكار الإمام العظيم. هذه هي السيادة الدينيّة نفسها التي صارت رسميّة تحت اسم «الجمهوريّة الإسلاميّة»، وصارت عنوان النظام الناشئ عن فكر الشّعب الإيراني وإرادته، وقيادة الإمام العظيم.

صلابة الإمام وعزيمته وانتصارات الجمهوريّة الإسلاميّة المخرسة أعداءَ النّظام

بين أنظمة العالم -الأنظمة الثورية والأنظمة التي تشكلت في القرن أو القرنين الماضيين- لا أعرف أيّ نظام جرى التنبّؤ له بالزوال والدمار والانهيار بقدر الجمهوريّة الإسلاميّة.

منذ اليوم الأوّل لتشكيل الجمهوريّة الإسلاميّة، كان المغرضون والأعداء، وأولئك الذين لا يستطيعون هضم هذه الظاهرة العظيمة وتحمّلها -في الداخل والخارج- كانوا يقولون إنّ الجمهوريّة الإسلاميّة لن تدوم شهرين آخرين، ومرّة ستّة أشهر أخرى، وأحياناً عاماً آخر، وسوف تزول.

طبعاً، صلابة الإمام العظيم وعزيمته، ثمّ الانتصارات العظيمة للشعب الإيرانيّ في حرب السنوات الثماني وأحداث أخرى مختلفة، أخمدت هذه الضوضاء، ولكن بعد وفاة الإمام أخذ المغرضون نَفَساً، ووجدوا أملاً، وبدؤوا تكرار أمنيّاتهم بصورة تنبّؤات، وكرّروا تلك الكلمات نفسها.

وكان آخر تلك التنبّؤات قبل عامين، عندما تحدّث الأمريكيون «المُوَقّرون» بآخر كلمة في هذا الصدد! لقد صرّح مسؤول أمريكيّ رفيع المستوى على نحو قاطع بأنّ الجمهوريّة الإسلاميّة لن تشهد الذكرى الأربعين لتأسيسها.

لكن، بحمد الله، الثورة الإسلاميّة ونظام الإمام الخمينيّ لم ينهارا ولم يتوقّفا، بل صارا أقوى يوماً بعد يوم. لم يستسلم الإمام، ولم يتخلَّ، وأثبتَ استقلاله أكثر يوماً بعد يوم، وأظهر أنّه حقّق توفيقات كبيرة وتغلّبَ على الموانع. كم من عوائق جعلوها في طريق هذه الثورة الإسلاميّة وهذا النظام بصورة متواصلة! أنواعٌ وأقسامٌ: سياسيّة واقتصاديّة وأمنيّة... وغيرها. تغلّب عليها كلها ومضى قُدماً. اليوم، صارت الجمهوريّة الإسلاميّة أكثر تطوُّراً من الأوّل، قبل أربعين عاماً، وأكثر تقدّماً، وهي متقدِّمة من النواحي جميعاً، بفضل الله.

اجتماع الإسلام والنّاس سرٌّ لديمومة الجمهوريّة الإسلاميّة

إذا أردنا أن نجيب عن هذه الأسئلة: ما السرّ في هذه الديمومة، ما السرّ في هذا التقدّم؟ ولماذا لم تواجه الجمهوريّة الإسلاميّة على الرغم من هذا العداء كلّه مصيرَ الأنظمة والثورات الأخرى؟ ما السبب وما السرّ؟ أقول إنّ السرّ العظيم لهذا النظام وديمومته هما هاتان الكلمتان: «جمهوريّة» و«إسلاميّة». اجتماع هاتَين الكلمتَين معاً، والموجود الذي يتكوّن من هاتَين الكلمتَين يجب أن يظلّ ثابتاً أيضاً. جمهوريّة وإسلاميّة أيضاً. الناس والإسلام. الجمهوريّة تعني الناس، والإسلاميّة تعني الإسلام طبعاً. السيادة الشعبية الدينيّة.

حاكميّة الدّين مأخوذة من «القرآن» والأحاديث

إنّ حاكميّة الدين منصوص عليها بوضوح في القرآن. الآية الشريفة من سورة «النساء»: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء، 64)، تبيّن أنّه تعالى أرسل الرُّسُل (عليهم السلام) ليُطيعَهم الناسُ. حسناً، في أيّ شيء يُطيعون؟ أيّ الأشياء هي الموضوع لطاعة الأنبياء (عليهم السلام)؟ المئات من آيات القرآن تبيّن ذلك: مثلاً آيات الجهاد، الآيات المرتبطة بإقامة القسط، الآيات ذات الصلة بالحدود والعقوبات، الآيات ذات الصلة بالمعاملات والعهود، الآيات المرتبطة بالاتفاقات الدولية - ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ (التوبة، 12) - إلى آخرها. هذه [الأشياء] تعني الحكومة. تدلّ هذه الآيات على الوجوب لطاعة الرسول في هذه الموارد. وفي موضوع الدفاع عن الوطن، وفي إجراء الحدود، وفي المعاملات والعقود الاجتماعية، وفي مسألة العقود مع الدول الأخرى، وفي إقامة القسط والعدل، وإقامة العدل في المجتمع... في هذه كلها لا بدّ أن يُطاع النبي. هذا يعني الحكومة. معنى الحكومة لا شيء غير ذلك. حاكميّة الإسلام منعكسة بهذا الوضوح في القرآن وواضحة. وفي السنّة والحديث وكلام الرسول (ص) وكلام المعصومين (عليهم السلام) هي موجودة إلى ما شاء الله. وقد أخذ الرسول الأكرم (ص) هذا العهد نفسه عندما جاء ممثلو أهل يثرب إلى مكّة لكي يدعوه (ص) إلى يثرب التي صارت في ما بعد مدينة الرسول (ص)، وقد تحدّثوا مع النبيّ (ص) في عقبة منى. قال: سآتي، لكن يجب أن تدافعوا، يجب أن تساندوا حتّى بأرواحكم. وهم قَبِلوا ووعدوا. أيضاً بعدما دخل النبيّ (ص) المدينة المنوّرة، أسّس الحكومة الإسلاميّة، وأقام الحاكميّة، وهذه الحاكميّة كانت مرتبطة بنبوته، أي لم تكن هناك مسألة أخرى. فلأنّه كان نبيّاً، ولأنّهم آمنوا به، أقام الحاكميّة.بعد وفاة الرسول (ص) أيضاً، لا أحد من المسلمين ومن أولئك الذين اختلفوا في مسألة الخلافة لديه شكّ في أنّ أيّ حكومة ستتشكل يجب أن تكون على أساس الدين وعلى أساس القرآن. لذلك إنّ قضية حاكميّة الدين، حاكميّة الإسلام، أمر واضح جدّاً، وهي لازمةُ الإيمان بالإسلام؛ أي إذا كان المرء يؤمن بالإسلام، وإذا دقق في الأسس المعرفية للإسلام، عليه أيضاً أن يؤمن بحاكميّة الإسلام في المجتمع.

خلق نظريّة الجمهوريّة الإسلاميّة وتحقيقها هما العمل العظيم للإمام الخمينيّ (رضوان الله عليه)

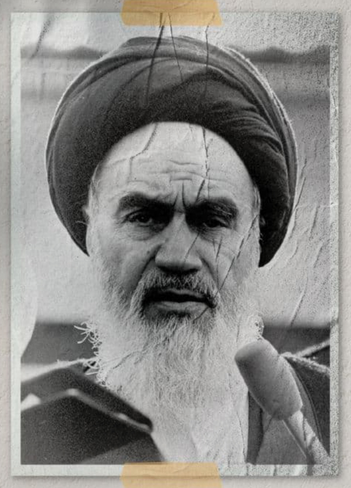

كان العمل العظيم لإمامنا العظيم هو خلق هذه الفكرة، هذه النظريّة، نظريّة الجمهوريّة الإسلاميّة، وإدخالها في ميدان النظريّات السياسيّة المتنوّعة -في تلك الفترة، كانت النظريات السياسية المختلفة، الشرقيّة والغربيّة، تتصادم مع بعضها في القضايا والذهنيات السياسية- ثم أضفى عليها التحقُّق، أضفى عليها العينيّة. لم يكن الأمر ابتكاراً صرفاً لنظريّة فحسب، بل حقّقها وأنشأ نظام الجمهوريّة الإسلاميّة. هذا هو العمل العظيم للإمام.

معرفة الإمام العميقة بالإسلام وثقته العميقة بالنّاس ركيزتان لإنشاء نظريّة الجمهوريّة الإسلاميّة وتحقيقها

كان الإمام (رضوان الله عليه) إنساناً عظيماً من نواحٍ مختلفة بما في ذلك المعرفة الدينيّة. وكان الأساس لإنشاء هذه النظريّة وتحقيقها معرفته العميقة بالإسلام من جهة -كان يعرف الإسلام ويعرف أنّ الحاكميّة الإسلاميّة مرتبطة بالرسالة الرئيسة للإسلام-، وإيمانه العميق بالناس من جهة أخرى. كان الإمام العظيم يؤمن بالناس كثيراً وبقدراتهم وبعزمهم وبوفائهم.

نظريّة الجمهوريّة الإسلاميّة على أساسٍ من نصّ الإسلام

بالتوكل على الله، وبالإيمان بالناس، وبالاستناد إلى تلك المعرفة العميقة بالدين الموجودة لديه، وقف الإمام راسخاً، ومضى بهذه النظريّة، وأضفى التحقّق على هذا الابتكار العظيم في محيط المجتمع. طبعاً، يجب أن أقول ذلك باختصار حتماً: إنّ هذا استنباط نابع من علم وليس أمراً عاطفيّاً. يجب أن يحكم الدين، وفي هذه الحاكميّة لا بدّ أن يكون الناس حاضرين؛ أي السيادة الشعبية الدينية، وهذا كلّه ينبثق من نصّ الإسلام.

مسؤوليّة الشّعب وواجبه في إقامة الحكومة الإسلاميّة وحقّ تقرير المصير

إنّ الجمهوريّة، والسيادة الشعبيّة، والاعتبار لرأي الناس قضيّة مهمّة جدّاً. يجب النظر إلى هذه المسألة من منظورين: الأول منظور دينيّ وعقديّ وفي إطار المسؤوليّة والحقّ، والآخر أنّ التحقّق العملي لحاكميّة الدين غير ممكن من دون الناس.

ذاك الجزء الأول، الذي هو حضور الناس، هو حضور قطعي في الحكومة الإسلاميّة. ويُفهم من مسؤولية البشر. في القرآن الكريم وفي رواياتنا كثير من المطالب الواضحة حول مسؤولية الناس تجاه مصير المجتمع: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ»؛ أي جميع الناس مسؤولون تجاه حالة المجتمع. «مَنْ أَصْبَحَ لا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ»؛ أمور المسلمين تعني أمور الأمّة الإسلاميّة، التي تشمل شؤون الجميع.

كذلك في «خطبة صفين» المعروفة التي تضمنت معلومات كثيرةً في باب الحكم، فلأمير المؤمنين (ع) جملة مهمّة جدّاً: «لكنْ من واجبِ حُقوقِ اللّه على عبادِهِ النَّصيحَةُ بمَبْلَغِ جُهْدِهِم والتَّعاوُنُ على إقامَةِ الحقِّ بَينَهُم»، ومن أهم حقوق الله تعالى وأكثرها لزوماً ما يلي: «التَّعاوُنُ على إقامَةِ الحقِّ بَينَهُم». يجب أن يعملوا معاً لإقامة الحق في المجتمع؛ أي هي مسؤوليّة الناس. الناس مسؤولون، وعليهم أن يساعدوا في إقامة حكومة الحقّ في البلاد، وإقامة حكم الله.

واجب الأمر بالمعروف واجب عام، ومن أهم المعروف حكومة الحقّ والعدل. لا بدّ أن تكون هناك حكومة عادلة في المجتمع، حكومة حق. وعلى الناس أن يأمروا بهذا المعروف. هذا يظهر مسؤولية الشعب. أو مثلاً مواجهة انحرافات المجتمع، التي ذكرها أمير المؤمنين في «الشقشقية»؛ إذ رأى أن من الأسباب لقبول الحكم هو هذا: «وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ»؛ أي أنّ الله تعالى أخذ هذا العهد من العلماء ألّا يقبلوا الانقسام الاجتماعي، وألّا يقبلوا الفروق الاجتماعية؛ إذ يُشرف أحدهم على الموت بسبب الشبع، والآخر بسبب الجوع! الآن، ذكر «العلماء»، إمّا لأنّ العلماء طبقة متميزة وهذا الحقّ يرتبط بهم أكثر وهذه المسؤولية تتعلق بهم أكثر، وإما ذكر العلماء بمعنى الحكماء؛ أي كل شخص صاحب دراية، فمن ليس صاحب دراية ليس بطبيعة الحال مسؤولاً. الشخص الذي يكون مطّلعاً هو المسؤول بطبيعة الحال. حسناً، هذه مسؤوليّة عامة. أما كيفية الممارسة لهذه المسؤولية، فهي متباينة في أوقات مختلفة. اليوم بالانتخابات، وقد تكون يوماً ما بأداة أخرى. [لذلك] هناك هذه المسؤولية. هذه «مسؤولية» من جهة، و«حقّ» من جهة أخرى، الحقّ في تقرير المصير. الناس أحرار. «لا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَ قَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرّاً». هذا الكلام لأمير المؤمنين (عليه السلام). اختر بنفسك، وحدّد مصيرك بنفسك. هذا من مُسلّمات الإسلام.

لذلك، موضوع حاكميّة الناس والسيادة الشعبيّة يستند على هذه التعاليم الدينية. هذا موجود في القرآن، وفي نهج البلاغة أيضاً، وفي سلوك النبي (ص) وأمير المؤمنين (ع) وزمانهم؛ إذ يقول أمير المؤمنين (ع) في «خطبة صفّين» نفسها: «فَلاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَالٍ بِحَقّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْل»؛ أي لا تنأ، أخبرني، أبدِ رأيك في ممارستي وأسلوبي وطريقة عملي. هكذا. لذلك، تنبع مسؤولية الناس وحقوقهم من نص الإسلام على نحو مُسلّم به. هذا هو المنظور الأول.

حاجة الحكومات إلى الدّعم الشّعبيّ

المنظور الثاني هو منظور المساندة والحاجة إلى الدعم الشعبيّ. هذا واضح أيضاً. أي حكومة إن كانت بلا دعم شعبي ولا يدعمها الناس، فسيتعيّن عليها العيش بالسيف والسوط؛ أي لا يمكن للحكومة أن تستمرّ. الآن، الحكومة الإسلاميّة والقرآنيّة ليست أهل الظلم والسيف والسوط العبثي على الناس. لذلك، لا يمكنها التحرّك بلا دعم الناس. إذاً، من غير الممكن للجمهوريّة الإسلاميّة أن تنشأ بلا دعم الناس، ولا يمكن أن تستمرّ بعد ظهورها دونه.

الجمهوريّة الإسلاميّة مخطّط دينيّ خالص وأصيل ولم يؤخذ من الغربيّين

السيادة الشعبية الدينية التي لاقت التطبيق الرسمي باسم «الجمهوريّة الإسلاميّة»، وطرحها الإمام الخمينيّ، هي مخطّط دينيّ خالص وأصيل، ولا ينبغي أن يكون هناك أيّ شك في ذلك. حقيقة أنّ بعض الناس يقولون إنّ الإمام أخذ الانتخابات والسيادة الشعبية وأمثالهما من الغربيّين بسبب المراعاة والإحراج وما شابه تصريحٌ لا أساس له أبداً. الإمام الذي عرفناه وتعاملنا معه سنوات عدّة، وقد رآه الناس، لم يكن شخصاً يتخلّى عن حكم الله بسبب الإحراج مع هذا وذاك فينصرف بهذه الكلمات عن حكم الله. لا! إن لم تكن هناك سيادة شعبية في الدين، ولم تكن من الدين ومن الله، فما كان الإمام قد سلّم بها. كان الإمام يقول رأيه بصورة قاطعة. لاحظتم في حياته، في اليوم الذي أثار فيه مسألة الحجاب -إلزام النساء ارتداء الحجاب في البيئة الاجتماعيّة- كيف عارضه كثيرون، حتّى المقربون من الإمام نفسه. جاءني أحد المقربين منه في ذلك اليوم وقال: يا سيّد! ما الذي يقولونه؟ ما هذا الذي يقوله الإمام؟ أنت، مثلاً، اذهب واطلب من الإمام أنْ يتراجع. بالطبع، كان رأيي موافقاً لرأي الإمام.

نعم، قد عارضه كثيرون، لكن كان هذا رأيه، وقد طرح مسألة الحجاب بحزم، وكان كلاماً صحيحاً.

من ذاكرة القائد (دام ظله)

الإمام الخمينيّ (رضوان الله عليه) وإيمانه بالناس

في بداية النهضة (عام 1341)، وفي أحد الدروس، جرّ النقاش إلى القضايا السياسيّة، فأشار الإمام (رضوان الله عليه) إلى صحراء قم، وقال: لو دعونا الناس، فسيملؤون هذه الصحراء! عام 1341، حين لم يكن أحد يتخيّل أنّه بالإمكان إشراك الناس في مثل هذه الحركة. وكِلا الجزأين من هذه النظرية، نظرية الجمهوريّة الإسلاميّة، جزئها الإسلاميّ وجزئها الجمهوريّ، كان الإمام يرى أنّهما مرتبطان بالإسلام، وقد أخذهما من الإسلام. كما أنّ إحاطته بالمبادئ الإسلاميّة ومعرفته العميقة والشموليّة في فهم القضايا الإسلاميّة أنشأتا هذه النظريّة في ذهن ذلك الرجل العظيم.

من توجيهات القائد (دام ظله)

فليشارك الناس

نحن أينما وظّفنا الناس والتزمنا الإسلام نكون قد تقدّمنا، سواء في زمن الإمام أو هذه العقود بعد رحيله حتى اليوم. أقول هذا بصورة قاطعة وهناك أدلة كثيرة أمام أعين الناس يمكن تقديمها. أينما جلبنا الناس إلى الميدان، وحيثما جعلنا الإسلام المعيار والمقياس الرئيسي لعملنا، فإنّنا نمضي قدماً، وحيثما جرى تعطّل في أحدهما، لم نتقدّم. مثلاً لنفترض أنّنا أدخلنا الناس إلى ميدان القضايا الاقتصاديّة. لقد كنت أكرر منذ سنوات أنه علينا تطوير الورش الصناعية الصغيرة والمتوسطة ومساعدتها وتنميتها، ما يعني أن هذه الورش الصغيرة والمتوسطة تطعم وترتبط بالملايين -هذا هو حضور الناس- فلو عزّزنا هذا، لكان الاقتصاد اليوم أفضل من ذلك.